أنقاض الجسد والعقل في رائعة بيكيت السيريالية «أيام سعيدة»

تحفة المسرح الحديث لا تزال مثيرة رغم مرور نصف قرن

يوم 27 من الشهر الجاري يحتفل العالم بيوم المسرح، وتتلو شخصية مسرحية دولية كلمة المسرحيين في العالم.
في هذه المناسبة ألقت الزميلة هالة صلاح الدين نظرة على أحدث ما شهدته خشبة المسرح البريطاني من خلال مسرحيتين عرضتا مؤخرا الأولى "ايام سعيدة" وهي إحدى روائع صامويل بيكت، ويصادف هذا العام مرور نصف قرن على ظهورها للمرة الاولى على خشبة المسرح، والمسرحية الثانية هي "يهود سيئون" التي كتبها جوشوا هارمون، وأثار الإعلان عن عرضها مشكلات وصلت إلى حد رفض شبكة المواصلات البريطانية السماح بنشر إعلاناتها في محطات الأندرغراوند بلندن، علما أن الجويش كرونيكل امتدحت المسرحية. هنا قراءة لكلتا المسرحيتين بوصفهما من الأعمال الجريئة.

هالة صلاح الدين

❏ خمسون عاما تقريبا مرت على "أيام سعيدة" هذه التحفة الوجودية للكاتب الأيرلندي صامويل بيكيت، خمسون عاما على معاناة ربة منزل قادرة على إطلاق الأنفاس رغم ما يغشاها من ركام جسدي وعقلي، عقود ولا تزال تبث فينا على مسرح يونج فيك اللندني تساميا أقرب إلى التجارب الروحية ورواقية مستسلمة منبعها بطلة مبتهجة تعتليها الأنقاض.

إن شخصية ويني هي ذروة أية ممثلة، المعادل النسائي لهاملت، وتعدّ من أصعب الأدوار، الرجالية والنسائية، على مسرح العبث. ومثلما خاطر بيكيت، أستاذ التقمص العاطفي، بالاستعانة بممثليْن لا غير في مسرحيته "في انتظار غودو"، ضيّق في الظاهر أدواته بالاتكال على امرأة واحدة في عرض يكاد يبدو منفردا.

قد تتراءى المشاهد متقلصة على مستوى المكان والزمان، إذ نعايش في خلال يومين لا غير بطلة غارقة حتى خصرها في الحطام، ولكن جولييت ستيفينسون الحاصلة على لقب قائدة الإمبراطورية البريطانية والمتألقة في دور ويني تلغي من وجداننا هذا القصور، وبالضربة القاضية تتغلب بعبقريتها على البريطانية بيللي ويتلو التي برعت من قبل في الدور نفسه، وبهذيانها المهتاج تمثّل جوهر الحالة الإنسانية المتقوّضة لا محالة في سبيلها إلى اللّحْد.

ساعتان تراجوكوميديتان

وخلال ساعتين من مشاهد كوميدية، وأخرى تراجيدية، يخالجنا شعور ضار باليأس خليق بمسرحيات إسخيلوس بينما يغوص النص في تأمل موحش لانعزال البشر. لا تتحرك الرحلة قيد أنملة، وفي أثناء تدميرها للبطلة –وكذا للمتفرج– نتعرف على أيام الفناء الأخيرة. تردد ويني في أزمتها عبارات تسعدها، تخوض في شعائر يومية لا تقهر كي تحس بنبض الحياة.

بيكت شاعر الاستعارات التهكمية الكبرى في المسرح

النص محبوك النسيج بثراء مفعم بالشفقة والرثاء، لا كلمة ضائعة أو دقيقة مهدرة، تسلي البطلة نفسها قائلة، "ابدئي يومك يا ويني". في العام الماضي دفنت مخرجة العرض البريطانية ناتالي إبراهامي نفسها حية، قالت في حوار صحفي بلسان غير مكترث، "أردت فقط أن أقف على التجربة. الواقع أني شعرت بدفء وراحة متناهيين وكأني جنين".

الجرس هو السيد

بلغت إعدادات المسرح درجة الكمال حين اختار فنان الضوء بول كونستابل أن يغلف الخشبة نور شبيه بنور القمر. أتتنا أصوات صلصلة مثيرة للأعصاب تلاعب بها مهندس الصوت توم جيبونز من وراء الستار، فويني تمتثل صاغرة لأمر صادر من جرس فترخي عينيها وتستغرق في النوم. وإذا جرؤت ونعست خلال النهار، يصدمها الجرس بقعقعته البشعة.

يكاشفنا النص دون مواربة: أن تكون إنسانا هو أن تكون جثة معصوبة العينين، رهينة لجرس، أو ربما جذْل من شجرة مدفون، وبالكاد تتنفس. تصفع ويني شمس حارقة ملتهبة طيلة اليوم، يوم لا فرق بين نهاره وليله، ويشبهها بيكيت "بطائر يتلطخ ريشه بالزيت". والبيئة التي تنغرز فيها ما هي إلا صحراء لا تشي بأي دليل على دورة الحياة البشرية.

ولكن ويني لا تلين ولا تتباطأ في التباهي بمرحها، وتجد ما تفعله رغم الورطة، تصلي للمسيح، تغسل أسنانها، أي شيء يسعها تأديته من أجل البقاء. ننزعج من إصرارها على الثرثرة إلى زوجها الكئيب الفظ، ولا يخرج حديثها عن الاستخفاف به والانتقاص من قدره، زوج لا مبال يقوم بدوره على نحو باهت البريطاني ديفيد بيميز.

لا يحيا هو الآخر حياة إنسانية، يقطن في كهف، وقلما تقع أعيننا عليه. نادرا ما يجيب على مونولوجاتها العابثة عدا حين يرسل زمجرة بين الحين والآخر ليطمئنها أنها ليست وحيدة في البرية وأن هناك روحا بشرية لا تزال تتعلق بها، تصفها بأنها "واحدة من النعم العظيمة". ولو حدث وردّ عليها بجملة، تشع بالسرور والامتنان وينشق وجهها بابتسامة قائلة، "آه، هذا يوم سعيد، إنه يوم آخر سعيد".

لو اعتقدت أن حياة ويني قاتمة، انتظر وستجدها في الفصل الثاني حتى عنقها في الرمال! تعجز عن تحريك رأسها من جانب إلى الآخر، ينتحب الوجه على خسارة الذراعين والصدر، حتى نظارتها المكبرة وزينتها حرمت منهما، وذكريات الفصل الأول "السعيدة" تخبو من مستنقع وعيها. يرقد مسدس في المسافة الفاصلة بينها وبين ويلي، والسؤال يعذبها، هل تحاول أن تنهي بؤسها؟ لا تقدم على شيء، فغريزة الحيوان المتأصلة فينا تدفعها إلى الحياة.

ولكن بيكيت يسمح لويلي بتدبر فكرة الخلاص. يرتدي في مشهد عبثي زيا رسميا أنيقا، يتسلق نحو ويني، نحو السلاح. وبيكيت، استراتيجي الحبكة اللامع، لا يشفي غليلنا، ولا نقف على القرار. هل بلغ ويلي جانب زوجته؟ هل يقصد المسدس أم يبغي تعزيتها؟ وكما هو حال الدنيا، لا تنغلق الدائرة أبدا ولا تضع القصة أوزارها.

قبضة محكمة

يتسلح بيكيت، المسرحي بدرجة شاعر، بالاستعارة والتهكم المرير لخلق عالم لا ينفلت أبدا من قبضته. يعتقد أن التقليد المتعارف عليه الذي يقضي بالتعاون بين الكاتب المسرحي من جانب وبقية العاملين من جانب آخر انتهاكا للكاتب. أراد بيكيت أن يكتفي مخرجو مسرحياته بدور المترجم الحرفي، دون مطمح إلى الاضطلاع بأي دور إضافي.

اشتعل غضبه مخيفا إن خالف المخرج توجيهاته المكتوبة، وفي "أيام سعيدة" تتراوح التعليمات بين الالتزام الصارم بشبه الجمل ونبرات الصوت حتى إن المغامرة بتعديل المسرحية وصل ذات مرة إلى أن جرجر ورثته المخرج إلى قاعات المحاكم! شأنه شأن آلهة خفية أو قوة طبيعية أو جماعة إرهابية ورطت ويني وويلي ليذعنا إلى مصيرهما الأسود، ينهض بيكيت هو الآخر بدور الدكتاتور المطلق.

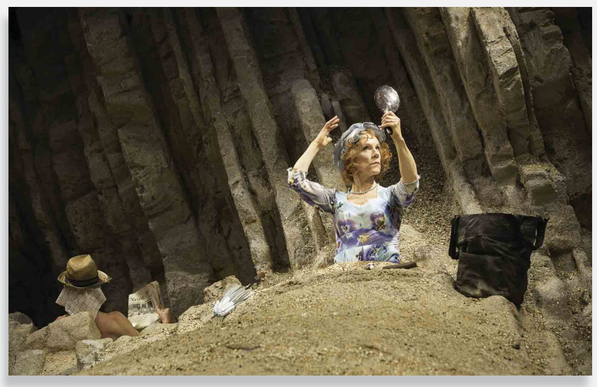

وهكذا لا تتداخل المسرحية مع أية وشائج معاصرة خشية إهدار نوايا بيكيت الفنية، كيف وبيكيت يصر ألا تحرّك ويني الحقيبة من مكانها وهي تفتش عن زينتها؟! والويل لمن يعترض. تلتزم المخرجة بتعليماته التزاما مبهرا ليتكل العرض كلية على عنصر التمثيل الذي تعالى بستيفينسون إلى قمة الإبداع وإن شعرنا وكأننا نتفرج على لوحة فنية متحفية، فالحوار حقا محفوظ، وكذا كل نفس وكل همسة. ومع استعارة النص المخيفة المصوّرة لشخصين في منتصف العمر يعانيان خواء وجوديا وصراعا مع الموت، لا يسعنا إلا التماهي مع ديناميكية التحدّي أولا ثم هاوية الاستسلام ثانيا. نراهما يكافحان كالجنود بكل طاقتيهما، يقعان ضحية لمصير قاس لا يستوعبانه ولا يقدران على صدّه.

إنها الإنسانية تتحدّى، خاسرة، عوامل الفناء. وويني، رمز الجلَد في مواجهة ذعر التلاشي، تمرح مرح المحتضر حتى النفس الأخير، والمتفرجون يتلقفهم اليأس والتفاؤل والغضب في عودتها إلى التراب، فيفتشون في دواخلهم على الخلاص والتثبت بالحياة.

مشاهد من العرض المسرحي البيكيتي: نص عبثي ساحر في كل وقت

كراهية الذات وعقدة الذنب في المسرحية اللندنية «يهود سيئون»

الكاتب والمنتج يهوديان والممثلون والجمهور نصفهم يهود لكن عين الرقيب لا تنام

❏ إنهم في هذه المسرحية "سيّئون" بالفعل، و"سيّئون" هنا تعني "غير ملتزمين بالقواعد" لا "أشرارا". لم يشفع هذا المنطق اللغوي البسيط لمنتج "يهود سيّئون" عند هيئة مواصلات لندن التي رفضت وضع إعلان المسرحية على سلالم المترو، ويظهر الأبطال الأربعة وهم ملتحمون في شجار جسدي.

اعترضت الهيئة في تصريح رسمي قائلة إنه "قد يتسبب في إهانة بالغة للآخرين"، ولم تعدل عن قرارها حتى مع تصريح المنتج داني موار بأن نصف العاملين في المسرحية يهود، وهو يهودي، وكاتبها جوشوا هارمون يهودي، ونصف المتفرجين من اليهود. حاول دون جدوى استغلال واقعة أخرى مدوية لصالحه واصفا القرار بالغرابة "في أعقاب أحداث شارلي إبدو، فقد التحم الجميع في مسيرة ضدّ الرقابة".

كانت هيئة الإعلانات النموذجية قد وافقت على الملصق وأفتى مجلس الوكلاء البريطاني، وهي الهيئة الممثّلة لليهود في بريطانيا، بأن الملصق مقبول فيما منحت الجريدة اليهودية جويش كرونوكل المسرحية تقديرا نقديا نادرا من خمس نجوم. وعليه فكل الناس الذين تدّعي هيئة المواصلات حماية مشاعرهم في هذه الخطوة الرقابية بامتياز ليسوا في حاجة إلى هذه الوصاية.

ليست هذه هي السابقة الأولى لهيئة المواصلات، فقد رفضت مؤخرا ملصق ترويج لمسرحية "ليلتي مع ريج" على مسرح أبوللو اعتراضا على ما به من عري، كما وجدت أن ملصقا للجماعة المسيحية المسماة "أمانة القضايا الجوهرية" ينتهك سياستها، إذ أوحى بأن بمقدور الجماعة مساعدة المثليين على تغيير ميولهم الجنسية.

دراسة عن الملامح اليهودية

صحيح حقا أن نصف الحضور من اليهود؛ حين تدلف إلى مسرح سانت جيمز اللندني تتمكن من خلال نظرة بانورامية إلى المسرح الممتلئ عن آخره من إجراء دراسة مستفيضة عن الملامح اليهودية في بريطانيا. تقاطيع الرجال حادة عريضة، الملامح شرق أوسطية لولا الأنف المهيمن، والنساء نسخ ناعمة من وجوه الرجال، بها من القوة مثل ما بها من الغموض.

فاتتني فرصة عظيمة لتبيّن علامات الاستياء على هذه الوجوه الحيادية حين نسيت التلفع بكوفيتي الفلسطينية عند حضور العرض!

كان كافكا قد سأل في مذكراته عام 1913، "ما الذي أشترك فيه مع اليهود؟ إنني لا أشترك في أيّ شيء تقريبا مع نفسي". بحلول عام 1945 بات اليهود يتقاسمون تاريخا من الذنب. أكد الكاتب الأميركي فيليب روث ذات مرة أن اليهود أناس مختلفون عما يدّعيه المعادون للسامية. ولكن المؤرخ الأميركي ساندر ديلمان يعتقد أن اليهود حاولوا أن يتحوّروا كي يشبهوا أعداءهم، وفي غضون عملية الاندماج هذه كان عليهم أن يبطنوا معاداة السامية، معاداة أضمرتها الدول التي آوتهم، ومن ثمّ ولّدوا طواعية كراهيتهم لأنفسهم.

الحق أنه لا يمكن إلصاق تهمة معاداة السامية بـ"يهود سيّئون" (بالمعنى اليهودي الدارج، لا المعنى اللفظي لكلمة "السامية" الذي يشمل غير اليهود). لا تنقطع دافنا مندوبة الساميين عن الصراخ في وجهي ابني عمها، "التلمود، التوراة، التقاليد، التراث!!" يلمّ بها الانزعاج حين تنبئها خطيبة ابن عمّها ليام أن بها عرقا ألمانيا. تصرّ على أنك يجب أن تتخذ موقفا معاديا من الفلسطينيين –تتجنب النطق بكلمة "فلسطين"– إن كنت تدين باليهودية في أيّة بقعة من العالم.

الفتاة فجّة في صرامتها وتشبثها بالأجداد وتضحياتهم. إنها "مجنونة، مخبولة" بالتراث اليهودي، ومستقبلها يكاد يتعلق بهولوكوست الماضي. عانى جدّها طويلا في المعسكرات النازية. كان يمتلك سلسلة ذهبية أبقاها تحت لسانه شهورا ليخفيها عن أعين الألمان. والسلسلة هي أثمن ما خلفه بعد أن فارق الحياة، بمغزاها الديني الذي "يفخر به التاريخ" مثلما تباهت الفتاة.

يرغب ليام الملحد، ويقوم بدوره إيان جودمان، في تقديم السلسلة إلى خطيبته المسيحية عندما يطلب يدها للزواج. وكانت الفجيعة حين تعلم دافنا فتلتحم معه في جدال لفظي مطوّل عن الإرث ومسؤولية الجيل الرابع من الهولوكوست عن إبقاء المعاناة حيّة، تتوارثها الأجيال.

ثالثهما الأخ الأصغر الضائع في المنتصف، لا هو رجل دين، ولا رجل دنيا. ينفجر الملحد والمتطرفة إحباطا وغضبا، في حين يتحلى الثالث بالصمت أو التحفظ في أفضل الأحوال. ولكنه هو من سيرسم خط النهاية ويسدل ستار المسرحية عندما ندرك تمزقه بين فجيعته الأبدية على جدّه وتلهفه على الوجود بمنأى عن عقدة الذنب وابتزاز الآخر.

الأصول تعرفنا

ولكن من هو المستحق للسلسلة؟ أهي دافنا المهووسة بالسيطرة التي لولا أنها أنثى لضفرت شعرها كالرجال اليهود عند حائط المبكى؟! أم أنه ليام المتشوق لتجربة الحياة عن إيمان بأن لا فرق بين اليهودي وغيره، رافضا أن يشق له الدين الطريق. وهكذا تصير شقة فاخرة في مانهاتن مسرحا لدروس صاخبة في التطرف والولاء من جانب، والإنسانية والانسلاخ من جانب آخر.

من نحن؟ وإلى أي مدى تعرّفنا الأصول؟ تطرح المسرحية أفكارا جريئة تمس كل الأديان، علاقتنا بفكرة الإيمان، أمحلّه القلب والمسلك، أم أحذيتنا البالية في ارتيادنا للمسجد والكنيسة والمعبد بلا انقطاع؟ ومع طرح بعض التساؤلات، يقطع النص بأن لا مجال لفرض الدين أو التباهي به باعتباره منجزا إنسانيا.

يجتمع أبناء العم الثلاثة بما يسمح لهم بالضرب والزعيق والعناق، لأن "أهم شخص في عائلتهم" مات. تمتزج التوترات العائلية بمثيلتها الدينية، ووفاة الجدّ قد تفضي حقا إلى إسالة الدماء. تتصاعد حدّة الخلاف بألمعية شديدة في كتابة النص خلال ساعة ونصف من الجدل حتى تحل الكارثة، إذ يمسك كل واحد منهم بتلابيب الآخر قبل يوم من الجنازة المشهودة.

إنه الشدّ والجذب الأزليان بين العرف الديني والعولمة أو الاختلاط حتى التلاشي بين الأعراق. تهتف دافنا إلى ليام بصوت جنوني، "سوف تتزوج بها وتنجب أطفالا نصف يهود، وسوف يتزوجون من دين آخر، وينجبون أطفالا ربع يهود".

لا ريب أن البطلة يتلبّسها منطق الحرب العالمية الثانية في عنفوان الخطر النازي، ولكنه في عام 2015 والدنيا قد تغيّرت. عقود مضت على الهولوكوست ولا يزال اليهود ينهلون خيرا من معاناة الأجداد. ومثلما على المسلمين أن ينهضوا من غياهب القرن الرابع عشر، والمسيحيين من خزي الحروب الصليبية، سوف يسدي اليهود العالم صنيعا إن تجاوزوا شعائر الماضي بكل تطرفه، وتضليله أحيانا.

جذورنا المتهرئة

من السهل دحض النقد المسدّد إلى المسرحية بأنها يمينية متشددة. لا تنحاز "يهود سيّئون" مطلقا إلى اليمين، وإنما إلينا. إنها مسرحيتنا جميعا، نتمسك حتى آخر رمق بالغائب والفائت والمنقرض، جذورنا المتهرّئة الضاربة في التاريخ والمنفصلة عن عالم الحاضر والواقع، "ولكنها جذورنا"، تنبس دافنا بنبرة خافتة وقلب كسير، أجل، نتعامل معها كأمر محتوم إن شرّقنا أو غرّبنا.

تستحضر هذه المسرحية قصة "ابنتا الخالة" للكاتبة الأميركية جويس كارول أوتس، وتستنكر إحدى بطلتيها "تقوى الهولوكوست هذه! فرّت مني ضحكة، لقد استخدمت تلك الكلمة والإجلال يرين عليك في أحد خطاباتك. لا أستخدم أبدا هذه الكلمة التي تنزلق الآن على ألسنة الأميركيين مثل الدهن".

خرج الطبيب النفسي البريطاني آدم فيليب في مقالته "ريبيكا، اخلعي عنك ثوبك"، إن يهود غرب أوروبا اضطرّوا منذ العصور الوسطى إلى أن يفطنوا إلى "يهوديّ غير مقبول" في باطنهم، ثم اضطرّوا إلى أن ينبذوه كي يبقوا على قيد الحياة. وما نجم عن هذا هو شكل خبيث من أشكال معاداة اليهود لأنفسهم. تقول البطلة في إحدى فقرات قصة "ابنتا الخالة":

رمى أحد النقاد اللاذعين مورجنشترن بالخائنة التي تبث العزاء في نفس العدو –أيّ عدو؟ هناك كثيرون– لمجرد أني صرّحت، وسأعيد التصريح متى يسألني أحد بأن "الهولوكوست" حادثة من حوادث التاريخ كما أن كل وقائع التاريخ حوادث؛ لا غرض من التاريخ مثلما لا غرض من النشوء، لا هدف ولا تطوّر. إن النشوء مصطلح يطلق على ما هو كائن. يروم الورعون المستغرقون في أحلام اليقظة الادّعاء أن حملة الإبادة الجماعية التي انتهجها النازيون حادثة متفردة في التاريخ، وأنها سمت بنا فوق التاريخ. هراء فارغ، هكذا قلت، لن أنزع عن القول. لقد جرت العديد من حملات الإبادة الجماعية، طالما قامت البشرية على الأرض. إن التاريخ تلفيق من الكتب.

> تستحضر هذه المسرحية قصة «ابنتا الخالة» للكاتبة الأميركية جويس كارول أوتس، وتستنكر إحدى بطلتيها تقوى الهولوكوست هذه

ضحك هستيري

سوف يصعب على غير الخبير بمأزق اليهود إبان الحرب العالمية الثانية أن يلتقط عددا من التفاصيل، وأن لن يغيب عنه لبّ الكوميديا. قد تبدو كل هذه المواضيع غاية في الجديّة إلا أن هارمون كتب مشاهد لن يكف معها المتفرج عن الضحك لحظة، بل وسيتساءل كيف بمقدور الممثلين التسامي بهذا الأداء الرفيع وسط موجات الضحك المتتالية؟ إنها ولا شك أكثر مسرحية مضحكة شاهدتها في حياتي!

تقوم المذهلة جينا أوجن الفائزة بجائزة أفضل ممثلة مساعدة من جوائز المسرح البريطاني، عن دور دافنا. توقيتها الكوميدي رائع، ووقفاتها تحمل بوتقة من المضامين والتلميحات: رفعة إصبعها، هزة رأسها، خطوتها المحسوبة يمينا أو يسارا، وقد أبدع المخرج مايكل لونجهيرست في كل تعليماته دون استثناء.

المعجز هو قدرة أوجن على تكثيف فقرات قد تتواصل لمدة عشر دقائق من الحديث –أو بالأحرى الصياح– عن واجب اليهودية، وجدّها الميت لتوّه وخطيبها جلعاد الضابط في الجيش الإسرائيلي. يغيظها ابن عمها الملحد متهما إياها باختلاق هذا الخطيب، اخترعته كي تلصق نفسها عاطفيا وعنوة "بالأرض الموعودة". فالفتاة متصلبة تصطنع المرح، لا تخطر ببالها إلا نصوص العهد القديم، وتقيس قيمة من حولها بمدى اقترابهم أو ابتعادهم عن النص الإلهي. هل تذكّركم هذه الخصال ببعض أصحاب الأديان الأخرى؟

مشهد من العنف الذي تعبر عنه المسرحية

> إنه الشدّ والجذب الأزليان بين العرف الديني والعولمة أو الاختلاط حتى التلاشي بين الأعراق

يصعب على من لم يكن خبيرا بمأزق اليهود في الحرب العالمية أن يعي أبعاد هذا النص المسرحي